الخطاب الديني المسجدي وشروط التواصل

الدكتورة حمو الحاج ذهبية
جامعة مولود معمري تيزي وزو/الجزائر

إنّ المتأمّل في الكتاب العزيز الحكيم سمعا أو قراءة يدرك أنّه خطاب موجّه إلى تسليط النّظر على الحقيقة وإبراز حكمة الله في الكون كاستدلال على ظواهر التوحيد والإيمان بأركان الإسلام، إلى جانب ما يقوم بتسيير حياة الإنسان أخلاقيا، واجتماعيا وسياسيا...وبعد أن أوكلت مهمة إيصال هذه المعالم الدينية والدنيوية إلى الرسول (ص) الذي اختاره الله من الصديقين، أوكلت بعد مماته إلى الصحابة التابعين له في الدين، ثمّ إلى الأئمة المؤمنين المخاطبين للناس أجمعين وذلك باختلاف مداركهم ومستوياتهم وأشكالهم وألوانهم...فهم في مهمّتهم يحاولون الوصول إلى عقول النّاس وقلوبهم بما يوفّره القرآن والحديث النبوي من أدلّة وبراهين تلج بالخطاب إلى درجة الإقناع والاقتناع، يقول الله تعالى:"ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"*، وتوظيف "جادلهم بالتي هي أحسن" تعني اختيار أفضل السبل للوصول إلى القلوب والأذهان بيسر وأمان.

وقبل الخوض في معالجة الخطاب الديني المسجدي لا بأس من العودة إلى بعض المفاهيم والتصورات حول التلفظ والتداولية. ففي دراسة لإميل بنفنست حول التلفظ (1966-1974)، نجد ديكرو يقحم التداولية باعتبارها مكوّنا من مكوّنات الوصف اللساني، وتتمثّل الفكرة الأساسية هنا في أنّ البعد التداولي للملفوظ داخل في إطار اللغة ذاتها، وليس في وضعية خاصّة، وهو عكس ما ذهب إليه شارل موريس في تقسيمه السميائي[1].

وحسب هذا الأساس، فإنّ العلاقة بين الملفوظات حجاجية وليست استنتاجية، وهذا يعني أنّ القواعد الحجاجية التي تنظّم وتسيّر العلاقات بين الملفوظات وتأويلها ليست مظبوطة بقوانين منطقية أو استنتاجية، ولكن مظبوطة بمواقع حجاجية مشتركة. يرتكز هذا النموذج على فرضيتين، إحداهما تقول أنّ الملفوظات لا تُبْلِغ بحالات الأشياء، ولكن تبلغ أفعالا ومنها جاءت أفعال الكلام، والفرضية الثانية وهي التي تتحدّث عن المرجعية الذاتية حيث فهم الملفوظ مرتبط بفهم أسباب تلفظه، بمعنى أنّ وصف الملفوظ يستلزم نوع الفعل

المنارة للاستشارات

الذي سوف يحققه، إذ لا ينفصل الملفوظ عن التّلفظ وعن النتائج المتوخاة منه في سياق معيّن، وفي الحقيقة هو إحالة إلى هذين العنصرين من الجانب الفكري والملموس الذي هو اللغة باعتبارها الحامل الشرعي والأساس.

وبعد الجهود الواضحة التي شهدها البحث اللغوي، بقي أن نفهم كيف تمّ الانتقال من اللسانيات المهتمة بوصف الميكانزمات(الآليات) إلى نوع آخر من اللسانيات التي تهتمّ باستعمال اللغة، فبظهور ما يدعى بالتّلفظ اختلف اللسانيون في خطابهم وذلك من خلال طرح بعض الأسئلة الجوهرية: أليس التلفظ هو الكلام؟ أليس فعلا فرديا للغة؟ أليس هو ما ينفلت عن الوضع وعن المعيار؟ أليس هو المستحيل للدراسة؟

إنّ الخطاب أنواع، والإنجازية في أفعاله تبقى صفة نسبية لأنّها خاضعة لنوع الخطاب الذي ترد فيه، والخطاب الديني المسجدي يختلف في بنائه عن النّص المكتوب، وذلك من حيث معالجة الأفكار التي تكون في حالة ترابطها، ثمّ الاختلاف يظهر حيث يكون هذا الخطاب فكرة واحدة، أو جملة من الأفكار المنحدرة من فكرة أساسية، نلحظ ذلك جليا في إحدى خطب الجمعة[2] التي أوردها عبد الحميد مهدي، وهي خطبة بعنوان:" ليلة القدر : ليلة نزول القرآن . هي أعظم الليالي على الإطلاق" [3]، والتي تنقسم إلى خطبتين: الخطبة الأولى والثانية، فالأفكار تسلسلت في انسجام تام مرتبطة بالفكرة الأساسية وكأنّها شبكة عنكبوت تنطلق من نقطة البداية وتنسج معالمها بطريقة جدّ محكمة.

إنّ المخاطب في المسجد يقتفي طريقة الفكرة الأساسية ثمّ الأفكار المنحدرة منها لأنّ التحديد الزمني يجعله يقتصر على هذا النمط، كما أنّ لأهمية الموضوع دورا في النّص المطروح للمعالجة، إلى جانب العامل الذاتي المتمثّل في معرفة المخاطب بالدين، أي ثقافته وكفاءته الذهنية والتحليلية، وإلمامه بالموضوع المطروح خطابيا، ففي الخطبة المقترحة نستشف تقديم الموضوع بطريقة خاصة، إذ بعد النّص الخاص بالاستهلال الخطابي المتمثل في التشهّد والدعوات الموجهة إلى الله عزّ وجلّ، يمهّد المخاطب لموضوعه بمقدّمة مؤطرة لموضوع الخطاب ذاته، فهو يقول :" أيّها المسلمون الأفاضل/ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون التفضيل بين الخلائق والتمييز بينها حتّى يرتقي المسلم من درجة إلى أخرى...ففضّل الله بين البشر...وفضّل بين الرّسل...وفضّل بين الأماكن...، وفضّل بين المساجد،...، وفضّل بين الأزمنة ....وفضّل بين الليالي..."، ولتأكيد أقواله هذه يشفعها بآيات قرآنية وآحاديث نبوية بغاية تقوية الأفكار وإمدادها بقدرة على الإقناع الذي يحتاج إليه المخاطب

المنارة للاستشارات

بشكل حاسم وربّما هي طريقة مثلى للوصول إلى قلوبهم وعقولهم، وهو ما يفضي إلى إشكالية التأثير المقترن بالإقناع في كثير من الأحيان.

إستراتيجية الإقناع: تهدف الخطبة الدينية في المسجد إلى إقناع الحاضرين بمحتواها. كان أرسطو أوّل من أثار قضية الإقناع واستعمل المصطلح في حدّ ذاته محاولا أن لا يخص الخطابة بالقيمة الانفعالية فحسب، ولكن يجعلها ذات قيمة عقلية تعتمد على الإقناع، إلا أنّ أرسطو لم يحدّد مصطلح " الإقناع" تحديدا دقيقا والدليل على ذلك عدم تقديمه لأي مفهوم له معتقدًا أنّه بغير حاجة إلى تعريف، ومن المتعارف عليه أنّ الإقناع مرتبط بالحجاج، والخطاب المسجدي هو خطاب حجاجي، إذ يخرج عن المناقشة الجدلية البرهانية بالمفهوم المنطقي، لأنّه يخاطب أذهان الناس الذين هم بحاجة إلى حجج مقنعة يركن إليها العقل، يقول محمد العمري:"...إنّ عامة النّاس يتأثرون بمشاعرهم أكثر ممّا يتأثرون بعقولهم، فهم بحاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجّة"[4]. واستعانة المخاطب بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض القصص النبوية تعدّ وسيلة ناجعة نظرا لقدرتها على الإقناع الموضوعي، فالمخاطب يقول:" في حديثه عن تفضيل الله بين الرسل: " وفضّل بين الرّسل، يقول الله تعالى في سورة البقرة الآية 253:" تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات"[5]، فالقوّة الانجازية منبثقة من الآية ذاتها، إذ التفضيل مسّ حتّى الأنبياء، فلماذا لا يمسّ الليالي؟ إذًا لا غرو من الحديث عن ثنائية الإقناع والاقتناع.

ركزّت البلاغة الجديدة[6] التي أرساها برلمان وتتيكا على التفريق بين الإقناع والاقتناع وذلك في جزء كبير منها، وهو الأمر الذي لم يوله اللسانيون أي اهتمام، فغاية الحجاج عند برلمان هي الاقتناع المرتبط بالجانب العقلي، وعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن الحجاج الإقناعي والحجاج الاقتناعي الهادف إلى التسليم العقلي والاستسلام. تخضع طرائق الحجج إلى مقدّمات، كما تخضع إلى طبقة السامعين الذين نفترض اختلافهم من شخص إلى آخر، لأن المسجد مكان التقاء النّاس من كلّ الأعمار والفئات الاجتماعية، فهو جمهور غير متجانس، وتكرار المعلومات قد يؤدي إلى الملل، والفصل بين الشكل والمضمون قد يؤدي إلى خلل من الناحية الأسلوبية التي لا يمكن بدورها الانفصال عن الأهداف الحجاجية، إلى جانب كلّ المظاهر الشكلية بما في ذلك النبر والتنغيم وملامح الوجه والإشارات والإيماءات.

المنارة للاستشارات

التزم المخاطب في خطابه بالطريقة الاثباتية باستعمال حروف العطف، التي تلعب دور الروابط الحجاجية لأنها تعمل على ربط النتيجة بالسبب، وتسمح بالتماسك بين الأفكار والفقرات بشكل يجعل المستمع ينقاد لأقوال المخاطب ويتشبّث بمضامينها، محاولاً الولوج دائما إلى المقاصد المستصاغة ماديا ومعنويا ببثّ الرّوح الإنسانية والدينية فيها. وما ذكر من طرائق يحدّد دلاليا التماسك في الخطاب، ويخضع هو بدوره إلى عدّة موجّهات بمفهوم برلمان وتتيكا[7] وتبدو كالتالي:

1- **الموجه الاثباتي:** وهو ما يبرز في صيغ الإثبات التي لا يخلو منها أيّ خطاب، والخطاب المسجدي لا يخلو منها لأنّ من مراميه غرس الأفكار، وإثبات الحقائق الدينية وتثبيتها كما هي، فالتوكيد مطلوب لأنّ المخاطب بحاجة إليه، في حدود ما يخوض الصراع الدلالي الذي يؤدي به إلى اختيار الدلالات والأساليب التي تستهدف غرس القيم وإعطائها الأرضية التي تنشئ أشخاصا متدينين، محبين لله، مفتخرين بدينهم.

2- **الموجه الإلزامي:** وهو ما يبرز في صيغة الأمر الذي يستمد قوّته من المخاطب(الإمام)، إذ للولوج إلى الأهداف الحقيقية توظف الصيغ الإلزامية التي تتحدد غالبا في الأمر. يتحول إلى صيغ الترجي وتبرز بالخصوص في نهاية الخطبة لأنّ المخاطب يناشد الله بأسلوب لا ينتظر منه الالتزام، ويظهر في الترجي باعتباره أسلوبا متميّزا في مثل هذه الخطابات، إذ تتحوّل المحادثة منطلقة من الأسفل إلى الأعلى وتتجلّى في مثل أقوال عدّة وبالخصوص في نهاية الخطبة، أي أنّها تتّخذ الشكل العمودي، حيث مثلما يأمر الله عزّ وجلّ عباده بالصلاح والفلاح، فكذلك يفعل الإمام مع مخاطبيه في ذلك المقام. فالمخاطب يقول[8]:

" اللهمّ إنا نسألك موجبات رحمتك،....

"اللهمّ انفعنا وارفعنا بالقرآن،....

"اللهمّ ذكرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا.... فلا يمكن الحديث عن الأوامر وإنّما الرجاء والطلب، لأنّها جمل تخرج من غرضها الأصلي إلى غرض آخر حدّده السياق.

3- **الموجه الاستفهامي**: في الخطابة الدينية، لا ينتظر من الاستفهام الإجابة الفورية لأنّها استفهامات إنكارية، يقول المخاطب:

- أيليق بنا أن ننتسب إلى دين خير الأنبياء، ونحن أبعد الناس عن العمل بالسنّة الغرّاء؟

المنارة للاستشارات

- أيليق بنا أن نقول أننا مسلمون ونحن نخالف أحكام القرآن، نعصي جهارا نهارا أوامر الرحمان؟
- أيليق بنا أن نقول أننّا للإسلام محبّون وأعمالنا تنطق بأنّا له كارهون؟. إنّ الخطاب جار في اتجاه واحد على شاكلة المحاضرة ليس للمخاطب أن يشارك فيها إلاّ بالسماع، ولكن دوره يبقى هاما وقائما، ودونه لا وجود للخطاب، وفي حقيقة الأمر يعدّ عنصرا مسهما في نشوء الخطاب وتشكّله، إذ يتلقى النّص ويشارك في حدوثه وفي انسجامه وتناسقه، وهو ما يتجلى في استعمال المخاطب (الإمام) لضمير الجمع أو نون الجمع الذي يعني عند بنفنيست نحن= (أنا+ أنت+هو+هم+أنتم....)، ولكن بيار أشار يؤكد على عدم استعمال الضمير نحن بكثرة في الخطابات، فهو الذي يقول:" ...إنّ اختيار الضمير المجهول "نحن" يخضع لإرادة المتكلّم لا سيما في الممارسة الشفوية حيث يعتبر استعمال الضمير الشخصي"نحن في وضعية الفاعل حالة نادرة جدا"[9]، إلا أنّ اختراق هذه الظاهرة يبدو واضحا في الخطابات التي يحاول المخاطب فيها تمرير أقواله دون تحسيس المتلقي أنّه المقصود الوحيد بها، بمعنى جعل القضية متقاسمة.

ينظر التوجه الخطابي التداولي إلى النّص بأكمله باعتباره وسيلة تواصلية، ثمّ إن طبيعة الخطاب الديني المسجدي يؤهله للكشف عن الأفعال الكلامية، علما أنّ هذه الأخيرة تمثّل آليات المخاطب التي تستهدف أغراضا محدّدة، ومن ثمّ فإنّ الجمل الاسمية الواردة في الخطاب تدخل في هذا الإطار لأنّها تعبّر عن مقاصد معينة إضافة إلى الجمل التي تحتمل الفعل الانجازي ذاته، وقد جاءت الجمل الاسمية تقريرية تحيل إلى ثبات القضايا الدينية التي لا يمكن أت تتغيّر في معالمها مهما تغيّرت العصور وتعاقبت الأجيال ومنها نجد:
-والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي أعظم ليلة في التاريخ الإنساني كلّه.
– إنّما فضل شهر رمضان دون غيره من الشهور بسبب واحد هو نزول القرآن العظيم فيه.
– إنّه القرآن العظيم، كتاب الله العزيز...

ومن الملاحظ في هاتين الخطبتين ورود فعل إثبات الحكم الانجازي، وهي سمة تفرضها طريقة عرض المعلومات في مثل هذا الخطاب، إذ نجد أنّ الأفعال جاءت في حالة الإثبات، وأخرى جاءت في حالة استفهام، والأفعال الإثباتية مرتبطة في نمطها ودلالاتها وأبعادها بالجمل الاسمية، ثمّ يمكن الإحالة إلى ما يدعى بالفعل الكلامي الانجازي الشامل الذي يتحدّد من خلال:

المنارة للاستشارات

- الاهتمام بأبعاد العلاقة بين المتكلم والمخاطب، والاهتمام بالسياق
- الاهتمام بنوع الخطاب إذ نجد الفعل الكلامي الشامل أكثر بروزا في بداية الخطبة وفي نهايتها لأنّ المخاطب يفرض جوّا من التفاعل مع الجمهور السامع ويثيره بتوظيف أسلوب متميّز يقتضي نوعا من العلاقة الروحية والإنسانية.

ويبقى نجاح هذه الأفعال مرهونا بمدى تحققها وإنجازها من قبل المخاطب. وبمدى القيمة الحجاجية التي يضفيها عليها المخاطب، وبمدى البناء الذي تحتكم إليه الخطبة، إذ عوّدتنا البلاغة القديمة بالمراحل المهمّة[10] المتمثّلة في :

1) **الإيجاد** : يقوم المخاطب(الإمام) بتحضير الموضوع، يتّم فيه الكشف عن الحجج والبراهين المعتمدة في الإقناع. إن ليلة القدر جاءت بمناسبة شهر رمضان، اختار فيها المخاطب الحجج التي تصيب الذهن وتستسلم له، لجأ المخاطب إلى الآيات القرآنية وكلّ ما يتعلّق بالثقافة الإسلامية وجعل من خلالها الجوّ ملائما لبلوغ الهدف.

2) **الترتيب** : رُتبت الخطب ترتيبا مميّزا، إذ تبدأ الخطبتان بشهادة تعدّ بمثابة مقدّمة، فهو الذي يقول في الخطبة الأولى: "الحمد لله ربّ العالمين. خلق الخلائق بقدرته. ورفع بعضهم فوق بعض درجات بحكمته. وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله لا شريك له. فاضل بين الأيام والليالي،..."[11]، ويقول في الخطبة الثانية:" إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرّ أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له. ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. وأشهد أنّ سيدنا محمّدا عبد الله ورسوله...."[12]، ولكن نشهد لخضوع الخطبة الأولى لموضوع ليلة القدر في حدّ ذاتها، في حين كان موضوع الخطبة الثانية هو القرآن، فهو يقول في الخطبة الأولى:"أيّها المسلمون الأفاضل/ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون التفضيل بين الخلائق والتميز بينها حتّى يرتقي المسلم من درجة إلى أخرى في السموّ والكمال..."
ويقول في الخطبة الثانية:" أيّها المسلمون الأكارم/ إنّ أحسن الحديث وأصدقه وأشرفه هو كتاب الله. قد أفلح من زيّنه الله في قلبه فاختاره على ما سواه من أحاديث النّاس، فحلّل حلاله، وحرّم حرامه..."، فلقد تمّ الانتقال من الخاص إلى العام فيما يخصّ الخطبتين، وانتقال من العام إلى الخاص فيما يخصّ خطبة واحدة، ومثل هذا الترتيب يحيل إلى طريقة الكل ثمّ الجزء، إذ ليلة القدر وما تحمله من معالم تعدّ الوعاء الحامل للقرآن حيث أنّ ليلة القدر هي ليلة نزول

المنارة للاستشارات

القرآن، فلا يمكن استبعاد ما تمثّله هذه الليلة بالنسبة للقرآن الكريم، إذ تعدّ يوم ميلاده، فالعلاقة تفرض الخضوع للمنطق وكرونولوجيا الأحداث.

3) **العبارة**: نعني بالعبارة تنسيق الكلام، ويقصد بذلك ما يحمله الخطاب المسجدي من معالم جمالية تجعل الكلام يمرّ بسلاسة بما في ذلك جمال العبارة نظرا لما يكتنف مثل هذا الخطاب من بيان وبديع، ففي قول المخاطب في الخطبة الثانية:" إنّه القرآن العظيم، كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب يأمر بالعلم النّافع والإيمان الكامل، واليقين الصادق، والعمل الصالح، والكسب الطيّب، والخلق الحميد، والأدب الرفيع، كتاب يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر"[13]. تعدّ هذه الجمل البسيطة من الجمل الحاملة للقوّة الانجازية في ذاتها، إذ تسهم في تسلسلها في تقديم قيمة حجاجية لا تضاهيها أخرى تجعل المخاطب يسترسل دون أن يقاطع ويصغى إليه دون عناء.

ومن عوامل الترابط النّصي في الخطاب الديني المسجدي نجد ما يدعى بالتوازن الايقاعي الذي يفرض على المخاطب استعمال بعض العبارات التي لها دور في التفكير والتذكّر إلى جانب المساهمة في ربط النّص وذلك على مستويين: مستوى المخاطب ومستوى المخاطَب، فقول المخاطب:" أيّها المسلمون، أو أيّها المسلمون الأفاضل في كلتا الخطبتين، وتارة يستعمل: أيّها المسلمون، أو أيّها المسلمون الأكارم" تحمل على ربط الصلّة بين المخاطب والسامع، ومثلما تحدث إيقاعا متميّزا في نفوس السامعين فإنّها تسهم في تقريبهم إلى الموضوع، ولفت انتباههم ومحاولة جذبهم، ثمّ استعمال الصيغة:" يا أيّها المؤمنون، أو يا أيّها المسلمون" يعدّ آلية حجاجية تنضوي تحت دافع التّقرب إلى الطرف الآخر، ناهيك عن الكلمات المتقاربة في الجرس الموسيقي، وباعتبارها كلمات دينية فإنّها تبحر بالسامع في عالم الخير والإيمان الكبير بالله وكتبه ورسله وملائكته.

يحتكم الوصول إلى مثل هذا الهدف الأسمى من الخطاب الديني المسجدي إلى عامل الحجة المقنعة التي خضعت بمفهوم برلمان إلى نمطها المعهود وهو المقدّمة ثمّ الحجّة ثمّ النتيجة، وإذا استعرضنا نموذجا وجدنا ما يلي:

"أيّها المسلمون الأفاضل/اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون التفضيل بين الخلائق والتمييز بينها حتّى يرتقي المسلم من درجة إلى أخرى في السموّ والكمال، ويسابق غيره في فعل الخيرات وبلوغ أرقى الدرجات، ففضّل الله بين البشر،.... ". لقد انطلق المخاطب من مقدّمة يعرض فيها فكرة التفضيل بين

المنارة للاستشارات

الخلائق/ المخلوقات ثمّ ولتطوير الفكرة وتوسيعها حاجج بطريقة ذكية حيث استعرض كيف فضّل الله بين رسله والأزمنة والأمكنة...ليصل إلى التفضيل حتّى بين الأيّام ويبادر بذكر ليلة القدر، ويمكننا أن نمثّل هذا النموذج في الخطاطة التالية:

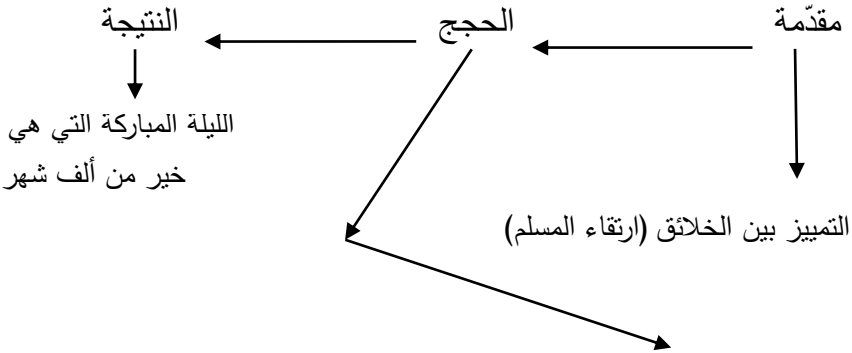

1- فضّل الله بين البشر، يقول تعالى:"**ورفع بعضهم على بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضا سخريا**"[14] .

2- فضّل الله بين الرسل، يقول تعالى:"**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض،....**"[15] .

3- فضّل بين الأماكن، وجعل المساجد أفضلها، يقول تعالى:" **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه**"[16].

4- فضّل المساجد نفسها، يقول الرسول(ص):" **لا تشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**".

5- فضّل بين الأزمنة، وجعل شهر رمضان أفضل الشهور، يقول تعالى:" **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**"[17].

6- فضّل بين الأيام وجعل يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع.

7- فضّل يوم عرفة من كلّ سنة.

8- فضّل بين الليالي، لقوله تعالى: "**ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر**"[18].

نلحظ التّدرج في وضع الحجج على شكل سلالم (وهو ما نادى به أوسوالد ديكرو) تقضي بالوصول إلى الذّهن بطريقة سلسة، تتدرّج في المعطيات وتقمع أيّ تشكيك يمكن أن ينتاب المخاطب، يقول عبد الله صولة:"والغاية من كلّ حجاج هو جعل العقول تذعن وتسلم بما يطرح عليها من

المنارة للاستشارات

الأقوال أو يزيد في درجة ذلك الإذعان والتسليم، فأنجع الحجاج أو الحجّة ما وُفّق في جعل حدّة الإذعان تقوى لدى السّامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب"[19].

وحتّى يستوقف المخاطب السامعين ويشدّ انتباههم ثبّت كلامه منذ البداية بالفعل (فضّل). إنّ الفعل (فضّل) يحمل قوّة انجازية رغم وروده في حالة الإثبات، فقد نجح هذا الفعل بقوّته الإنجازية والحجاجية لأنّه أفضى إلى معان ذي أبعاد تداولية متعدّدة. ونجاح الفعل الإنجازي مرهون بالقول ذاته، إضافة إلى توافر بعض الشروط، ثمّ إنّ عدم النجاح في أغلب الأحيان مرتبط بالجانب التأثيري، وليس بالقول ذاته، فالفعل (يأمر) الذي أورده المخاطب في الخطبة الثانية حامل لقوّة تأثيرية جدّ هامة لأنّه غير مرتبط بالقول ذاته على اعتبار أنّه لم يرد في صيغة الأمر، وإنما بصيغة المستقبل والاستمرارية، فهو إذن يتوجه بقيمة حجاجية ليّنة لا تزعزع عقول النّاس أو عقولهم، إذ لو ورد بصيغة الأمر المعهودة ربّما يفشل في الوصول إلى الهدف ثمّ الدين الإسلامي صالح لكلّ زمان ومكان، ولكلّ مسلم الفرصة في اتّخاذ الإسلام دينا وفرصة من العتق من النّار، فقد قال المخاطب:" إنّه القرآن الكريم، كتاب الله العزيز، كتاب يأمر بالعلم النّافع،...كتاب يأمر بالعدل والإحسان، كتاب يأمر بالرجولة الحقيقية للرجال،...كتاب يأمر بالأخوّة الكاملة،...يأمر بوحدة الصّف...."[20].

وفي الجهة المقابلة، يعدّ الفعل فاشلا حتّى إذا كان ذا أثر بالغ في المتلقي /السامع لأنّ الهدف من الأقوال من وجهة التلفظ وأفعال الكلام يتمثل في دفع السامع إلى التصرّف والعمل وليس التأثير فقط، فلا يكفي أن يحثّ المخاطب(الإمام) المستمعين على الصلاة وعلى فعل الخير والانتفاع به، وفي الحالات المعاكسة يحدث الفشل، يقول فليب بلونشيه:" إنّه من الأساسي مواءمة دراسة الأعمال اللغوية لتحليل شروط النجاح، وللظروف التي يسميها أوستين " حالات الاخفاق" أو "فشل"، ويقترح المؤلف ترسيمة لحالات الإخفاق الأكثر انتشارا ويذكر من بينها عدم احترام مواضعة من المواضعات الاجتماعية وعدم الأهلية القانونية وغياب المقصد والخطأ في صياغة الملفوظ صياغة دقيقة واستعمال إجراء لمعدول عن أصل وضعه..."[21]، ويمكن أن يكون الفشل ناتجا عن عدّة عوامل مجتمعة وبالتالي ينبغي أخذ التلفظ في إطاره العام.

لقد كشف أوستين عن عدم وجود فرق بين الفعل الإنشائي والتأكيدي لأنّ الإخبار باعتباره فعلا يفرض على المخاطب أن يكون عارفا ومدركا بما يتحدّث فيه، وأن يكون نزيها وأن يشاع عنه ذلك في المحيط الذي يعيش فيه، فلا يتصور خطيب دون هذه الميزة بالخصوص، إذ أنّ القضايا الدينية قضايا

المنارة للاستشارات

تناشد العقل والروح، ومن الأهمية بمكان أن يتكفّل بها شخص متديّن يؤمن بالله وبما يذهب إليه، يقول محمد العمري:" والخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يُلقى على نحو يجعله خليقا بالثّقة لأنّنا نستشعر الثّقة على درجة أكبر وباستعداد أوسع بأشخاص معتبرين في كلّ الأمور بوجه عام..."[22] وينبغي معرفة أنّه حتى في حالة فشل العمل القولي، فإنّ ذلك يسمح في بعض الأحيان بإنتاج تأثيرات لا قولية تبدو خارجة عن توقعات المخاطب، يقول المخاطب:"هل انتفعنا بتعاليم القرآن؟ هل طبقنا ولو قليلا من أوامر هذا الكتاب؟[23]، فهي أقوال انجازية باعتبار أسلوب الاستفهام الذي تحمله، إلاّ أنّها غير موجهة إلى مخاطب محدّد، ولا ينتظر الإجابة الفورية، إضافة إلى توظيف ضمير الجمع البارز في (نا) الدالّة على أنا+أنت+هو بمفهوم بنفنيست، والإجابة غير متوقعة تتمثّل في إضافة العبارات التالية:"فما أبعد حالنا عن حقيقة القرآن، نهانا عن الغيبة والنميمة، فجعلناها أفضل الحديث بيننا، ونهانا عن الربا وأكلناه، وعن الزنا فاقترفناه، وعن الخمر فشربناه، ونهانا عن الغشّ والسرقة والرشوة فأصبحنا مضرب المثل فيها. أمرنا أن نقول للناس كلاما حسنا فأصبحنا نختار أفحش الكلام وأردأه عندما نخاطب غيرنا"[24]. وباستعمال ضمير الجمع، حاول المخاطب التقرب من مخاطبه بطريقة ذكية لأنّه أراد أن يشركه في المسؤولية وتقاسمها، وعدم تأنيبه ومعاتبته لوحده، ومثل هذه الطريقة سهّلت المحاجة في الاتجاه الضمني الذي يقتضي ألاّ يتّصف المخاطب بالصفات السيئة المذكورة أعلاه ولكنّه صرّح بشيء آخر للأسباب المذكورة سلفا.

وفي إطار ما يصبو إليه المخاطب في مهمته لإنجاح العملية الحجاجية، يطرح أسئلة وهي بمثابة استفهامات إنكارية تحمل جانبين حجاجيين: الجانب الإيجابي والجانب السلبي، إلاّ أنّ المخاطب اختار المحاجة في الاتجاه الثاني، فهو الذي يقول:" أيليق بنا أن ننتسب إلى دين خير الأنبياء ونحن أبعد الناس عن العمل بالسنة الغراء. أيليق بنا أن نقول أننا مسلمون ونحن نخالف أحكام القرآن ونعصي جهارا ونهارا أوامر الرحمان. أيليق بنا أن نقول أنّنا للإسلام محبّون وأعمالنا تنطق بأننا كارهون"[25]، فالشطر الثاني من كل عبارة يناقض الشطر الأول منها ومثل هذا الترتيب يبرز تأكيد المخاطب على الأخلاق السيئة والنظرة السلبية التي أصبح النّاس يلتزمون بها خروجا عن طاعة الله وتعاليم الدين الإسلامي الذي اعتنقوه طواعية ودون أيّ مقابل.

إلى جانب ما يحمله الخطاب من أساليب تسهم في نجاحه، نجد ما يرتبط بالقوانين التي تتحكم في مثل هذا الخطاب. يحتكم الخطاب الديني المسجدي إلى بعض القواعد التي يتضمّنها النشاط اللغوي بشكل حتمي، أو ربّما هي النشاط

المنارة للاستشارات

ذاته، لمثل هذا الخطاب قواعد تضمن نجاحه ومنها قواعد التأدب، قواعد الإخبار والتعاون، مما يؤكد على الدور الذي تقوم به الثنائية الخطابية في العالم الاجتماعي، يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري:" إنّ مبدأ التّعاون أساسي في استمرارية الخطاب، فهو يرتفع به إلى درجات عليا وذلك يشدّ انتباه السّامع إلى ما يطرح سواء على مستوى المقدّمات أو التبريرات أو الأدلة، بهدف الوصول إلى النتائج بشكل صحيح أو ضمني. وإن كان التّعاون في هذا المقام افتراضي لا يظهر إلاّ من خلال بعض السلوكات من قبيل السكوت والإصغاء وترداد بعض الألفاظ في نهاية الخطبة، إذ المخاطب لا يتحاور مع المخاطب لأن هذا الأخير في وضعية السّامع، إلا أنّ وجوده وتقبله ورضاه عمّا يسمع حجة مقنعة على تعاونه ومشاركته في الخطاب، لأنّه لا وجود للغة الفرض والإجبار وإلزامية التّقبل"[26]. يحدث التفاعل الذي ينبعث من تقاسم هدف مشترك متمثّل في محاولة التقرّب من الله والظفر بعفوه ومغفرته، ويسمح بالبحث عن قوانين الخطاب التي نالت شهرة كبيرة حيث تعرّض بعضها للنقاش، وبعضها الآخر للانتقاد وأجملها جرايس في أربع مجموعات تتجلى في الخطاب الديني المسجدي كالتالي:

1-قانون الكمّ: قال المخاطب ما هو ضروري في الخطبة الأولى وفي الخطبة الثانية، إذ لم نشهد أي تكرار بين الخطبتين من حيث الموضوع، فالخطبة الأولى خصّها لليلة القدر المباركة وأفضى في فضائلها مستندا إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية باعتبارها نصوصا موازية لها. في حين يعرض في الخطبة الثانية فضائل القرآن الكريم، وذكر ما يتعلّق بعبادة الله وكيفية التقرّب منه بتجنّب المعاصي وكلّ ما يخرج عن فضائل الديانة الإسلامية.

2- **قاعدة الكيف**: قال المخاطب ما ينبغي أن يقوله في خطبة خاصة بليلة القدر المباركة ثمّ بالقرآن الكريم، وقام بذلك في أحسن وجه ملتزما بالنزاهة.

3- **قاعدة العلاقة**: التزم المخاطب بالإفادة، أي الاهتمام بما يفيد السامع في حياته الدنيوية والآخرة، يقول المخاطب في الخطبة الأولى"....فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر، ويحددّها الرسول(ص) في الثلث الأخير من شهر رمضان، فيقول في حديث متفق عليه (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في كلّ وتر)"[27]، ويقول في الخطبة الثانية:" واعلموا أنّه لا يصلح حالنا إلاّ إذا رجعنا إلى القرآن، نقرأه بتفهم وتدبر واعتبار، ونؤمن به إيمانا واعيا وعميقا ونعمل به بجدّ وصدق في كلّ شؤون حياتنا" [28]. لقد أعطى للسامع في خطبته الأولى ما يجب أن يعرفه حول ليلة القدر باستعانته بالسنّة

المنارة للاستشارات

النبوية مثلما توجّه في الخطبة الثانية إلى الإيمان والتحلي بالصدق والجديّة للفوز بالجنة بعد الممات.

4- **قاعدة الوضوح**: نظرا لتفاوت طبقة السامعين في الخطاب الديني المسجدي، فإن على المخاطب الالتزام بالوضوح في القضايا المطروحة وتبسيطها لأنّ غير ذلك قد يؤدي إلى الفشل.

وبتوافر هذه القواعد وغيرها بشكل تفاعلي في الخطاب الديني المسجدي يتمكّن المخاطب /السامع من الولوج إلى الدلالة غير المباشرة الممكنة، إلى جانب وجود الإحالة إلى المعرفة المتقاسمة بين المخاطب والسامع، من حيث أنّ الأوّل عارف بالدين، والثاني اكتسب بعض المعلومات الدينية وراغب في توسيعها للتقرّب أكثر من الله ومن الدين الحنيف بهدف تطبيق تعاليمه ومغفرته، تقول نبيلة إبراهيم:"يظهر المعنى في إشراك القارئ في فعل تكوين المعنى، أمّا الدلالة فترتبط بالمعنى في اللحظة التي نريد ترجمة المعنى إلى معرفة"[29].

وإذا انطلقنا من مفهوم بروندونر[30] Alain Berrendonner للفعل الكلامي إذ يقول: " إنّ القول هو ألاّ نفعل شيئا" مؤكدا أن القوّة اللا قولية ليست سوى اشتقاقا يقع لحظة التلفظ في سياق معيّن، وهو بهذا الصنيع يعود إلى نظرية أكثر تقليدية تعتبر اللسان تمثيليا(أي مجموعة من الأسماء تقابل مجموعة من الأشياء في هذا الكون).

ولمساندة هذا الرأي نجد فليب بلونشيه يعتقد في عدم شرعية العمل الأوستيني، فهو الذي يقول: "وحتّى مفهوم العمل لم يوظّفه أوستين ولا أتباعه بشكل صريح" [31]، وهو ما سمح لبروندونر بمناقضة الفكرة، مقدّما لها أبعاداً أخرى لم تكن واردة في أعمال باحثين آخرين، إذ يعتبر "العمل" سلوكا جسديا، فالقول هو عكس الفعل. وتطبيقا لهذا المفهوم يبرّر بروندونر ما ذهب إليه بقوله:" كفى أقوالا، نريد أفعالاً"[32]، وبالتالي عكست الآية من حيث اعتبار الأفعال الإنشائية تعويضا للعمل بأقوال على عكس ما ذهب إليه أوستين في كتابه الشهير Quand dire c'est faire إذ القول هو العمل.

وبتطوير الفكرة حول الخطاب الديني المسجدي، وباعتباره خطابا مكتوبا يبدو من الصعب اقتفاء آثار الأفعال الإنشائية، إلاّ أنّه من الناحية الضمنية يمكن تصور الدور الذي يؤديه المخاطَب في مثل هذه الخطابات إذ حتّى إن تأثر فالتصرّف الذي نادى به أوستين لا يظهر بصفة جليّة، ولهذا نقترب كثيرا من تحديد بروندونر للفعل الكلامي أكثر من أوستين، على افتراض أنّ المخاطب لا يستهدف في خطبة الجمعة إصغاء السامع وكفى، وإنّما حثّه على التّصرف للعمل من أجل دنياه وآخرته، وما جاء من أقوال تعكس الحياة التي يعيشها

المنارة للاستشارات

السّامع والأفكار التي تجول في خاطرته، يمكن أن نلبسها المقولة القائلة بالأفعال والأقوال، إذ الدين ليس فقط شعار ولكن هو تطبيق للتعاليم التي نادى بها الله وأمر حتّى يعيش الإنسان في طمأنينة ويواجه آخرته بمثيلتها.

الهوامش:

*- سورة النّحل، الآية 125.

1- بالنّسبة لهذا الفيلسوف تتشكّل كلّ سمياء (أي كلّ علوم الأدلّة) من ثلاثة مكوّنات التركيب : وهي العلاقة الشّكلية الّتي تربط الأدلّة فيما بينها. علم الدّلالة : هي العلاقة الّتي تربط العناصر اللّغوية بمضامينها. التّداولية: وهي علاقة الأدلّة بمؤوليها، ينظر في:
C.Morris, writing of the general theory of sign, Lahay, Paris, 1974, p. 21.

3- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية والدولية، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر 2008، ص149-153.

3- المرجع نفسه، ص 149.

4- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية – الخطابة في القرن الأول نموذجا-، ط1، دار الثقافة والنشر والتوزيع، المغرب 1986، ص 88.

5- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 149.

6 - C. Perelman, O. Tyleca, La nouvelle rhétorique, traité de l'argumentation, PUF, Paris 1958.

7 – نقلا عن جمعان بن عبد الكريم، إشكالات النّص، دراسة لسانية نصيّة، المداخلة أنموذجا، ط1، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، 2009، ص 201.

8- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 153.

9- بيار أشار، سسيولوجية اللغة، ترجمة عبد الله تروّ، ط 1، منشورات عويدات، لبنان 1996، ص 88.

10- حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس 1، كلية الآداب، منوبة، ص 13-17.

11- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 149.

12- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 151.

13- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 151.

14- سورة الزخرف، الآية 32.

المنارة للاستشارات

15- سورة البقرة، الآية، 253 .

16- سورة النور، الآية 36.

17- سورة البقرة، الآية 185.

18- سورة القدر، الآية 02.

19- صولة عبد الله، تقديم مصنّف الحجاج والبلاغة الجديدة ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج، إشراف حمادي صمود، منشورات كلية الآداب، تونس، ص 299.

20- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 151.

21- فليب بلونشيه، التداولية من أوستين إلى قوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا 2007، ص79.

22- محمد العمري، المرجع السابق، ص 24-25.

23- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 151-152.

24- المرجع نفسه، ص 152.

25- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 152.

26- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيورت، لبنان 2004، ص 45.

27- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 150.

28- عبد الحميد مهدي، خطب الجمعة، ص 152.

29- نبيلة إبراهيم، القارئ في النّص (نظرية التأثير والاتصال، مجلة فصول، المجلّد الخامس، ع1 (أكتوبر- نوفمبر-ديسمبر)، مصر 1984، ص 104-107.

30- A.Berrendonner , Eléments de pragmatique linguistique, Editions Minuit? Paris 1981, P 80 .

31- فليب بلونشيه، التداولية من أوستين إلى قوفمان، ص 171.

32 -A.Berrendonner, Eléments de pragmatique linguistique, P 80.

المنارة للاستشارات